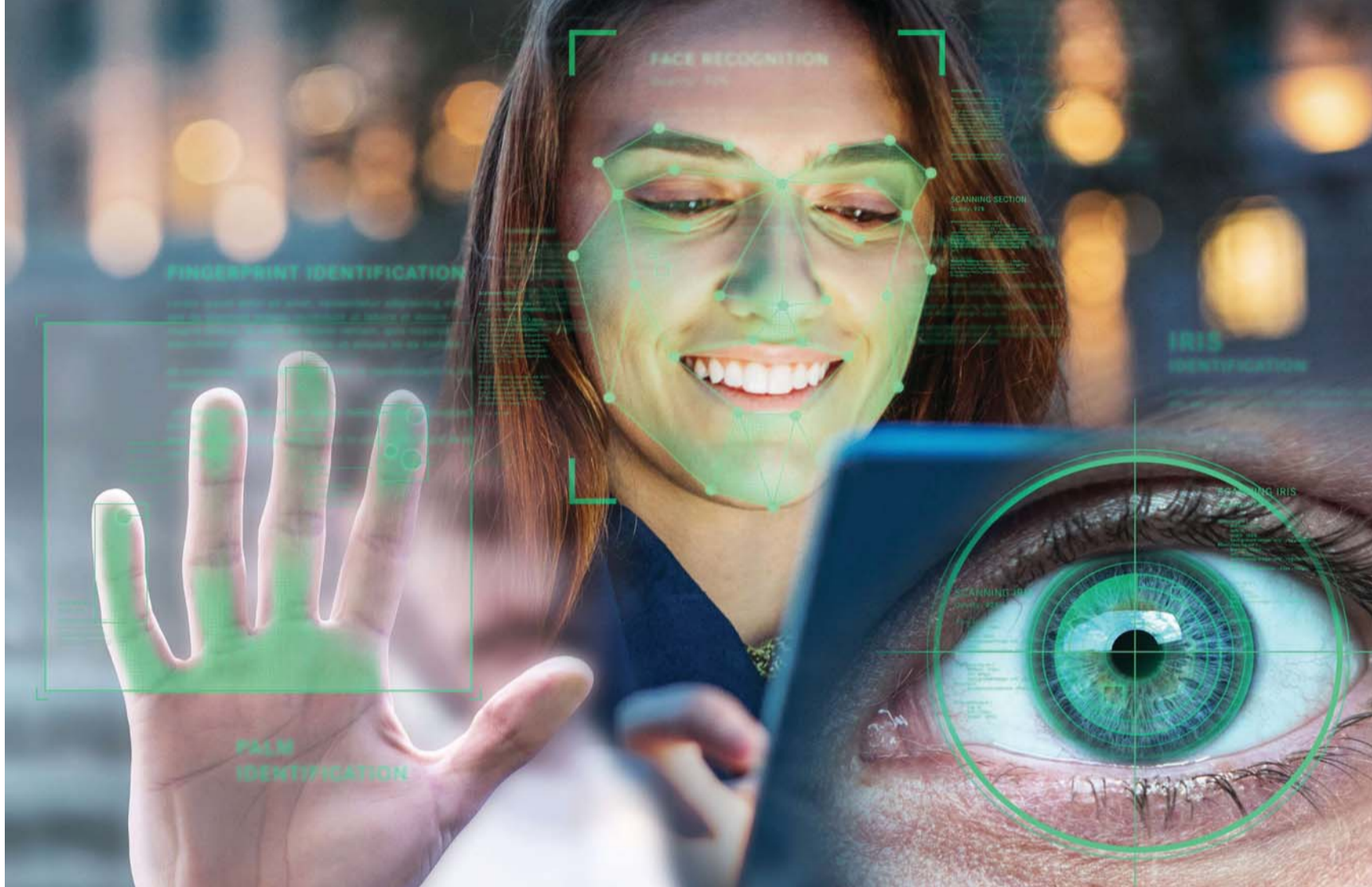


إنسان اليوم سجين ذاكرة رقمية شمولية

الألماني بيونغ شول هان: الذكاء الاصطناعي حوّل البشر إلى بيانات معلّبة



في كتابه "المراقبة والمعاقبة" يرى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو أن تصميم سجن البانوبتيكون (الرؤية الشاملة) كجهاز للانضباط والإكراه، يُرسّخ شعور المراقبة الدائمة لدى السجناء، فحتى لو لم يكن هناك من يراقبهم فهم لن يستطيعوا معرفة ذلك، لتصبح العبودية جزءاً من السلوك الاعتيادي للمسجون. المجتمع الرقمي اليوم وفق المفكر الألماني بيونغ شول هان هو بانوبتيكون جديد، يفصح فيه المرء عن كل أسرارهِ بإرادته الحرة، ومن ثم يسجن نفسه بشكل افتراضي.

محمد الحماصمي
كاتب مصري

يقدم لنا المفكر الألماني من أصل كوري بيونغ شول هان رؤية بعد حدائثه لمجتمع التواصل الشبكي، والبيانات الضخمة، تتسم بنوع من التشاؤمية، حيث لا يرى للحياة في العالم الافتراضي، مهما تمتع بإمكانيات لا محدودة للتواصل الرقمي، دوراً إيجابياً في حياتنا على المدى البعيد. ويعتقد هان أن المجتمع الرقمي مجتمع رقابي من نوع جديد، فيه يفصح المرء عن كل أسرارهِ بإرادته الحرة، ومن ثم يسجن نفسه بشكل افتراضي. وفي هذا السياق، يُعدّ التواصل الشبكي، كما نعرفه اليوم، إحدى ممارسات السياسات النفسية، أو السيكيوبوليتيكا التي يعزفها بأنها فن سياسة المشاعر والأفكار، فإذا كانت أقصى إمكانات الرقابة قديماً منحصرة في متابعة الأفراد بصرياً وسمعيًا، فإن لدى النيوليبرالية اليوم إمكانية مراقبة أحلامهم وأمالهم وأرواحهم ذاتها، ويتميّز هذا الطرح بجدل مع بعض أهم مفكري الحدائث وما بعدهما في أوروبا، متصافراً مع تسلسل الأفكار بشكل تلقائي، ما يجعله أسلوباً ملائماً حتى لغرب المتخصص.

بعد منظوري

يرى هان في كتابه "السيكيوبوليتيكا.. النيوليبرالية وتقنيات السلطة الجديدة" الذي ترجمه أخيراً كريم الصياد ووسر عن مؤسسة "مؤمنون بلا حدود" أن المراقبة الرقمية تثبت كونها أشد نجاحاً؛ نظراً إلى أنها غير متوقفة على منظور الرؤية الذي يحققه البانوبتيكون، ولا تعانى من نقاط ضعف النظام المعتمد بالضرورة على البعد المنظوري، إن المراقبة الرقمية تمكن المراقب من رؤية كل الزوايا وتمحو كل البقع العمياء، وعلى خلاف الإحصار في صورته التقليدية أو المنظورية، فهي قادرة على اختراق الروح الإنسانية نفسها.



بيونغ شول هان:

الذات المستغلة لذاتها هي أقرب إلى ورشة عمل، تكون ضمنها في منزلة الضخمة، والجاني في الوقت نفسه

يمكنه إزالة الشك المنهجي عند فولتير في التاريخ، على خلاف كتابات التاريخ القديم، التي تقع دوماً بالنسبة إليه على حافة الأسطورة، فإن الإحصاء لديه رديف التنوير؛ فهو يتصدى لكل سرد خرافي من خلال معرفة موضوعية تسندها الأرقام، وتتشفق لها. وبالنسبة إلى فولتير فإن الإحصاء يعني التنوير. إنه ما يضع في مقابل الخرافة معرفة موضوعية، مؤسسة على الأرقام.

ويتابع أن "الشفافية هي الكلمة المفتاح لعصر التنوير الثاني، والبيانات مجال شفاف بطبيعته. هي عدسة شفافة يمكن الاعتماد عليها. مبدأ عصر التنوير الثاني هو كل شيء يجب أن يتحول إلى بيانات ومعلومات. هذه الشمولية البيانية، أو الفيتيشية المعلوماتية، وهي ما يمنح التنوير الثاني روحه، نزعاً البيانات، القائلة إننا يجب أن نترك الأيديولوجيا خلف ظهورنا هي في ذاتها أيديولوجيا هي التي تقودنا نحو شمولية رقمية. ومن الضروري ما هنا أن يبدأ عصر تنوير ثالث، يوضح لنا أن التنوير الرقمي قد تحول إلى حالة من العبودية".

يشير هان إلى أن وسيط التنوير الأول كان هو العقل، الذي باسمه تم قمع الخيال والجسد والشهوات. وفي سياق نوع من الجدول الحتمى تم اعتبار كل ذلك أقرب إلى حالة بربرية، والآن فإن التنوير الثاني الذي يعتمد على المعلومات والبيانات والشفافية، يهدده الجدول المصري نفسه. التنوير الثاني يحمل في طياته نوعاً جديداً من العنف. يعني جدل التنوير أن عملية التخلص من المعتقدات الخرافية تفضى في كل خطواتها إلى الوقوع في حبال الخرافة "الوضوح المزيّف ليس إلا اسماً آخر للأسطورة".

كان يمكن للفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني تيودور أدورنو القول إن "الشفافية" في يومنا هذا هي اسم آخر كذلك للخرافة، كما كانت نزعاً البيانات تتضمن بالمثل وضوحاً كاذباً. الجدول القديم نفسه يصنع التنوير الثاني، الذي يسعى لمجاهة الأيديولوجيا بأيديولوجيا تعمل لصالحه، وأكثر من ذلك بما يؤدي إلى "بربرية البيانات". ويرى أن نزعاً البيانات نزعاً رقمية تنتسب من كل أنواع الإنساق ذات المعنى. إنها تفرغ اللغة نفسها من معناها: "أفعال الحياة لا يده لها ولا منتهى، كل ما يحدث يتم وفقاً لألية اعتبارية بحتة. هذا هو السبب في أن كل شيء متماثل مع ما سواه. البيانات هي البساطة بعينها". نزعاً البيانات نزعاً عديمة، إنها تتخلّى عن كل أشكال المعنى. البيانات والأرقام ليست حكايات، إنها مجرد إضافات. أما

المعنى على الناحية الأخرى فهو قائم على وجود حكاية. البيانات بكل بساطة تملأ الفراغ، الذي يتركه المعنى.

حالياً لا يتم تحويل البيانات والأرقام إلى حقائق مطلقة، بل ينظر إليها من منظور النزع الفيتيشية (العبودية الجنسية)، بحيث تغذي الطاقة الجنسية السارية في "النفس المكتملة". بشكل عام تظهر لنا نزعاً البيانات سلوكيات جنسية في الواقع بورنوغرافية.

البيانيون (أصحاب نزعاً البيانات) يتزاورون مع بياناتهم. وفي هذه الأثناء هناك حتى حديث عن "مُنتهي البيانات". إنهم رقميون بلا رحمة، يخلعون الصفات الجنسية على الأرقام.

ويتابع هان أنه بشكل كامل يسود الاعتقاد بقابلية قياس الحياة وتكميمها على كل العصر الرقمي. كذلك تتمكّل النفس المكتملة الاعتقاد نفسه. صرنا نرسم صورة الجسد عن طريق المجسات الرقمية، وبيانات الآلات، نقيس حرارة الجسم، سنكر الدم، اكتساب السرعات الحرارية، وحرقتها، نمط الحركة، ودهون الجسم، حتى أثناء جلسات التأمل تقاس نبضات القلب، وحتى الاسترخاء له مقاييس متعلقة بجودته وفاعليته. وكذلك الحالة الوجدانية، والعقلية، والأنشطة اليومية، كل ذلك يتم تسجيله.

وعن طريق القياس والتحكم الذاتيين يفترض بالأداء العقلي إن حجم البيانات يراكم حصيلتنا من الإجابات، ولكنه لا يطرح سؤالاً: من أكون؟

بالإجرى إن "النفس المكتملة" هي تقنية للنفس، تفرغها تماماً من المعنى، بحيث تتحلل النفس إلى بيانات بلا معنى.

ويعتقد هان أن شعار النفس المكتملة هو "معرفة الذات من خلال الأرقام". في الواقع مهما كانت البيانات والأرقام وحدها، مهما بلغ وسعها، مفهومة، فهي لا تمنحنا فهماً للذات. الأرقام لا تخبرنا بشيء البتة حول الذات. العدد ليس حكاية، بينما ترتحن النفس ذاتها بسياق

الحكاية. ليس العد "الإحصاء" سرداً. لكن الذات تدبّن بالفضل إلى السرد. ليس الإحصاء، بل الرواية، ما يؤدي إلى اكتشاف الذات ومعرفتها. إن الإنسغال القديم بالذات قد ارتبط بممارسات متعلقة بما يسجله المرء حول نفسه من معلومات. ويوضح أن "نشر الذات" رحلة بحث عن حقيقة الذات. إن تسجيل ذاتك هو، في حد ذاته، أخلاق للذات. لكن نزعاً البيانات تفرغ تتبع الذات من مضمونه الخلقي والحقائقي، وتحوله إلى مجرد تقنية للتحكم في الذات، كما يتمّ نشر البيانات المحمّلة وتبادلها. لقد صار تتبع الذات بشكل متزايد أقرب إلى مراقبتها. الذات اليوم أقرب إلى أن تكون سيّدة أعمال لنفسها، تستغل ذاتها، إنها تراقب نفسها.

مساجين الذاكرة

الذات المستغلة لذاتها هي أقرب إلى ورشة عمل، تكون ضمنها في منزلة الضخمة، والجاني في الوقت نفسه. وحين تكون الذات قائمة على تنوير ذاتها ومراقبتها، فهي تصنع لنفسها بانوبتيكون؛ حيث هي مراقب ومرآب في الوقت ذاته. الذات الرقمية، في عصر الإنترنت، هي بانوبتيكون نفسها، الذات مفوّضة اليوم من قبل نفسها لأن تقوم بهذا الدور.

ويقول هان "اليوم يتمّ حفظ كل ما نقوم به، وكل بحث نقوم به على الشبكة. كل خطوة نخطوها على الشبكة تلتاح وتُسجّل. إننا نحيا اليوم بالكامل في شبكة رقمية. وإن وضعنا الرقمي يمدّنا بانطباع عن أنفسنا، وخصوصاً في غاية الدقة. قد يكون أكثر دقة وكاملاً من صورتنا الذهنية عن أنفسنا. ولقد صار عدد المواقع المتاحة على الشبكة من الكثرة إلى درجة الانهيار، إلى درجة أن من الممكن أن يكون لكل سلعة أو خدمة عنوان على الشبكة. وهكذا صارت الأشياء نفسها مصادر معلومات نشطة. إنها تحمل المعلومات عن حيواتنا وأفعالنا وعاداتنا. إن امتداد شبكة الأشخاص: الشبكة إلى شبكة الأشياء هو ما ينجز

مجتمع التحكم الرقمي. حيث شبكة الأشياء هي ما تجعل التدوين والتوثيق الشامل للحياة ممكناً. إننا اليوم مراقبون بوساطة الأشياء، التي نستهلكها يومياً". ويؤكد "تحسن اليوم مساجين في الذاكرة الرقمية الشاملة. إن بانوبتيكون الذاكرة الرقمية الشاملة، التي نستعملها في سياق نظام المراقبة الفعال، إنه مجرد نظام تسجيل، يصنع قوائم العقوبات وأسبابها، ولكن حيوات المساجين فيه غير مسجّلة. إن الأخ الأكبر يبقى غائبا على كل حال، غير عالمين بما يفكر فيه فعلاً، أو ماذا يرغب. ولكن على النقيض من الأخ الأكبر سريع النسيان إن البيانات الضخمة لا تنسى شيئاً. ومن هنا السبب في أن البانوبتيكون الرقمي أكثر فاعلية من نظيره لدى بنّاء".

ويعتقد هان أن للبيانات الكبيرة القدرة على جعل رغباتنا التي لا نعيها قابلة للقراءة. إننا نطوّر في مواقف معينة الميل للاستحباب من وعينا، ونحن لا نعرف عادة لماذا نشعر فجأة بوجود حاجة معينة في أنفسنا. إن المرأة في الأسابيع الأولى من الحمل تصاب بمثل هذه الرغبة في منتج ما، إنها تشتري هذا المنتج، وكفى، دون أن تعرف لماذا. "إن الأمر كذلك"، وكفى، هذا الأمر - كذلك - ربما يتمتع بعلاقة فرودية تخدع الأنا. وهنا تقوم البيانات الضخمة بتحويل "الهو" إلى "أنا"، ومن ثم تسمح بالاستغلال السيكيوبوليتيكي للأنا. وإذا كانت للبيانات الضخمة القدرة على اللوج إلى عالم اللاوعي المؤسس لأفعالنا وميولنا، فإن السيكيوبوليتيكا قادرة على التغلغل بعمق في نفوسنا واستغلالها. ويرى إمكانية مقارنة البيانات الضخمة بكاميرا الفيلم. التفتيح عن ميوولنا، فإن السيكيوبوليتيكا قادرة على أن يضحك التصرفات البشرية، ويفسح المجال لقيام الفعل غير الواعي بعيداً عن فضاء الفعل الذي يتخلله الوعي. أما الميكروفيزياء التي للبيانات الكبيرة فهي "أفعال غير منقسمة": أي أفعال دقيقة الصغر، تكشف عن نفسها بصرياً، بينما هي تتهرب دائماً من الوعي.

الناس باعتبارهم بيانات

البيانات الضخمة يمكن لها كذلك أن تُعدّ أنماطاً جمعية للسلوك، لا يخضع للوعي في العادة. وهو ما يجعل اللاوعي الجمعي مختزلاً. وكما هو الحال في اللاوعي البصري يمكن للمرء كذلك أن يدعو اللاوعي الرقمي بالشبكة الميكروفيزيقية أو الميكرونفسية. ومن ثم قد تستطيع السيكيوبوليتيكا أن تستحوذ على سلوك الجماهير ضمن مستوى يتجاوز نطاق الوعي.

ويوضح هان أن البيانات الضخمة ليست أخوا أكبر فحسب، بل هي من الآن فصاعداً صفقة كبرى. البيانات الضخمة أعمال تجارية كبيرة. البيانات الشخصية هي بالكامل مجال للتقييم النقدي الاقتصادي والتجاري. واليوم تجري معاملة الناس، باعتبارهم بيانات معلّبة، يمكن استغلالها اقتصادياً. وهكذا صاروا هم أنفسهم بضاعة مزجاة. وعندما يرتبط الأخ الأكبر بالصفقة الكبرى، فإن الناتج هو اتحاد دولة المراقبة بالسوق. إن شركة البيانات أكسيوم تتعامل مع البيانات الشخصية لنحو 300 مليون مواطن أميركي، تقريباً كل الشعب الأميركي. أكسيوم تعرف عن المواطنين الأميركيين أكثر مما يعرف مكتب التحقيقات الفيدرالي.



تيودور أدورنو

نزعاً البيانات نزعاً رقمية تفرغ اللغة من معناها

فولتير الإحصاء معرفة موضوعية تسندها الأرقام وتتشفق لها

ولدى أكسيوم يتم تصنيف المواطنين في 70 فئة مختلفة. يعرضون في قوائم شأنهم شأن البضائع المعروضة. لكل احتياج ما يوجد ما يمكن شراؤه منهم. المواطنون ذوو القيمة الشرائية المنخفضة يصنفون هملاً؛ أي قمامة. أما هؤلاء ذوو القيمة المرتفعة فهم في مجموعة النجوم الصاعدة. المواطنون بين عمري السادسة والثلاثين والخامسة والأربعين ديناميكين، يستيقظون باكراً للهرولة، ليس لديهم أطفال، متزوجون، يفضلون السفر، ويشاهدون المسلسل التلفزيوني "ساينفيلد".

ويلفت إلى أن البيانات الضخمة تسمح بظهور طبقة اجتماعية رقمية جديدة؛ فمن يتمون إلى فئة "المهملات" هم الذين يصنفون ضمن الطبقة الكادحة، ومن يتم وصمه بتقدير ضئيل، فسوف يتم حظره. فإذا كان البانوبتيكون يقوم بمراقبة النزلاء المحبوسين داخل النظام، فإن البانوبتيكون الجديد يقوم من ناحية أخرى باستبعاد أعداء النظام، الأشخاص الذين يتعرف عليهم بوصفهم غير مرغوب فيهم، من النظام نفسه. البانوبتيكون الكلاسيكي يقدم خدمة التاديب داخل النظام، أما الجديد فهو يضمن أمان النظام وفاعليته.



كتاب «السيكيوبوليتيكا.. النيوليبرالية وتقنيات السلطة الجديدة»، البيانات الضخمة ليست أخوا أكبر فحسب بل هي صفقة كبيرة